كلمة فى التاريخ

كتب الدكتور هيكل فى العدد ١٤٧ من السياسة الأسبوعية (٢٥/١١/١٩٣٩) مقالاً عن (بيعة أبى بكر الصديق) ؛ وكأنه أراد أن يتابع القول بعد كتابه « حياة محمد صلى الله عليه وسلم » فى سير خلفائه رضوان الله عليهم . وقد مرّ الكتاب فى دوره التاريخىّ ، وانتهى إلى نهايته ، ووقف النقد دونه فلم يمسّه إلاّ مسّ الترفّق ، ولا أقول هذا لأضع من شأن الكتاب ، فهو إن لم يكنْ إلاّ تقريباً لسيرة رسول الله — حتى يستوعبها جمهرة القراء ممّن يعسُر عليهم متابعة سيرته فى الكتب الأصول — لكان ذلك نعم العمل ؛ هذا على أن للكتاب فضائل أخرى ليس هذا مكان الانباه إليها ، وفيه وراء ذلك أسبابٌ يعتلّ بها من وجوه ، كنّا نرجو أن يبرأ منها كلّ البراءة ، لما لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سموّ المنزلة ، ولما لكاتبه من القدرة على البيان ، والبراعة فى الفكر ، والاحسان فى سياق القول على منهج واضح معبّد . فحين قرأتُ كلمته عن « بيعة أبى بكر » ، حمّلنى ما وجدتُ فيها أن أكتبَ تعليقاً مقارباً أبدؤهُ بكلمة فى التاريخ الاسلامىّ ، وكيف انتهى إلينا من عند الأوائل ، وكيفَ بدأنا فى هذا العصر نكتبهُ على المنهاج الذى هو إلى رضى الناس أقرب ؛ ولأذواقهم أسرع ، وهو بذلك عليهم أجدى وأنفع .

ولنضرب حدًّا على ما نُريد من وجه القول ، لئلا ينتشر الرأى على الناظر فيه ؛ فان تاريخنا الاسلامىّ العربىّ يقع فى ثلاثة عشر قرناً من بدء الرسالة إلى مطالع هذا القرن ، ولكل قرن أو قرون منه بابٌ من القول يفضى إليه منه ، ونحوٌ يُقصَدُ قصدُه على سياسة وتدبير ، والتقصير فى تقدير الغرض قبل الإهداف إليه يرى بنا إلى الإسراف فى الحكم أو المجازفة بغير كيل ولا وزن . وقد رأيتُ أن أقصر قولى على القرنين الأولين من تاريخ الإسلام ، فقد فشا بعدهما كثيرٌ لم يكن فيهما ، وتغيّرت الأسبابُ الاجتماعيّة والعلميةُ والأدبية ، وبدأت تتقرر الحضارةُ الإسلامية على قاعدة بعد قاعدة ، واتسع الأفقُ الإسلامى حتى بلغ ما بين مغرب الشمس ومشرقها ، فى أمم كثيرة قد انتزعت من أعراقها انتزاعاً ، وترامت العربُ بينها واستفاضتْ ، فتباعدتْ عن المنشأ والمرْبَى والوطن ، وخضعت لطبائع لم تكن تخضعُ لها فى عقر ديارها ، وحملتْ بقايا هذه الأمم على ما لم يكن من متوارثها أو قديمها العادىّ المنتقل إليها فى أصلاب التاريخ القومىّ ، وجعل انتشارُ الاسلام واستحكام لغته يُزيل فى عنفوانه كلّ ما دربوا عليه واعتادوه وأخذوا أنفسهم بعلاجه وممارسته فى الجيل بعد الجيل ؛ ومن ثَمّ تنقذت العرب هذه الأمم المختلفة والشعوب المتباينه فأخرجتها — أو كادت — أمماً عربية مسلمة تنطق بالعربية وتدين بالاسلام ، وتتعامل على الأصول الاجتماعية المقررة فى هذه الدولة الواحدة المترامية المتراحبة ؛ ومع كل ذلك فقد امتازت أشياء بالبقاء لهذه الأمم ، فبقيت لتدلّ على أصولها التاريخية ؛ واختلطت أشياء وتشابكت واتحدت ، حتى استحكمت الأمة كلها إسلامية عربية على اختلاف أصولها ، وتعدد أوطانها ، وتباين طبائعها ، وافتراق نوازعها وأعراقها .

وأيضاً فإن للعوامل الاجتماعية التى يكون من سلطانها أن تستبدل شيئاً بشىء ، وجيلاً بجيل ، واجتماعاً باجتماع ، أكبر حجة فى فصلنا ما بين القرنين الأولين من الهجرة وبين ما جاء بعدهما ؛ ولعل أعظم هذه العوامل أثراً هو انتشار الكتابة انتشاراً لم يكن لها من قَبلُ وابتداء استقرار تأليف الكتب

على قاعدة جديدة لم تكن ، وشمولُ التأليف فى كل فن وعلم مما كان من فنون تلك العصور وعلومها . فإنّ ظهور التأليف والكتب فى عصر من العصور يفصل كل الفصل بين هذا العصر والذى سبقه — فى نظر من يجرّد نفسه لتأريخ هذه العصور .

والتاريخُ الإسلامىّ العربىّ فى هذين القرنين خاصةً تاريخٌ بكرٌ يتأبى على باغيه إلا أن ينفذ إليه بالصبر والحيلة والترفّق والأناة ، ومن أعظم أداةٍ غناء فى درك ذلك ، إدمانُ الفكر فيه والتقليب ، لما عسى أن يعمّيَهُ من كثرة الوجوه التى يسلكها الرأىُ إليه وغلبة التفرق على أجزائه ، مما يستدعى الوقوعَ فى الخطأ ، فيلدُ الخطأُ أخطاءً ، فلا يزال كذلك حتى لا يُهتَدَى فيه إلى صواب يطمئن عليه الرأىُ أو يقَر . وقد بنى هذا التاريخ الأول على الرواية ، والروايةُ بطبيعتها خاضعة لعلل ، وهذه العلل متفشّية فى الأصول[1] ، فلذلك أصبح هذا التاريخ من أشقّ الأعمال على من لم يتعاط أصول فن الرواية على التحرير والتجويد ، فنفذ بصائب رأيه إلى معرفة العلل الموجبة والعلل السالبة ، وأين يضرب بنظره فى أغوار الكلام ليستنبط مادة التعليل الصحيح للروايات المتفرقة ؛ وكيف يُتاحُ له أن ينفِى عنها ما عسى أن يكون كدّرَ صفوَها من أخلاط القول التى لا تنفعُ ولا تفيد .

فلا بُدّ إذاً لمن يتعرّضُ للتاريخ الإسلامىّ فى هذين العصرين خاصة أن يفرقَ بين التاريخ عند العرب والتاريخ الذى نعتمده فى هذا القرن الأخير ، وأن يتبين كلّ البيان معنى الرواية وما هى عند المؤرّخين ، وأن يقرر فى نفسه أصولاً كثيرة كلها يغذو عادّته هذا العلم ؛ وبذلك يتسنّى له ما يستغلق عليه من الأقفال التى ضربتها الضرورات الاجتماعية على تاريخ العرب فى الصدر الأول من الإسلام .

ونحن اليومَ نفهم معنى هذا الحرف (التاريخ) بوجه غير الذى كان يذهبُ إليه أوائلنا فى فهمه ، ونرى بكتابته إلى غرض غير غرضهم ، ونتناوله من حيثُ كانوا هم يقفون به ، فهم كانوا يعدون التاريخ فى اصطلاحهم وتأليفهم ، يوقّتونه من الأحداث والوقائع والغزوات والحروب ، وما تتضمنه من أخبار أصحابها فى وقت هذه الأحداث ، وما يكون من أخبار الدّولة وما يقع من بعض الوُلاة ممن يعظم أمرهم أو يقع إلى المؤرخ ذكرُهم ، وبعض ما يتخلل ذلك من تاريخ الأبنية كالمساجد وقصور الخلفاء وما إلى ذلك ، ونبذٌ مما يكون من البلاء الذى يستهلك الناس وأموالهم كالطاعون والخسف والزلازل والسيول والقحط ، ويضمنون ما يكون فى السنوات من ذكر الوفيات من المشهورين والعظماء والعلماء ومن إليهم ، ويضمّون إلى هذا العلم كتب تراجم الرجال من الشعراء والكتاب والأدباء والعلماء والرواة على اختلافهم ، وذلك كلّه على التقتير والاختصار ، لا يتوسعون فيه إلا بقدر ما كانوا يَعُدُّونه من حاجتهم إليه فى الفنون المختلفة . وكان غرضهم منه كما وصفوه أن يقفوا على أحوال الماضين من رجال الأمم فى أخلاقهم وسياساتهم وتدبيرهم وبصرهم بشأن الدولة حتى يقتدى بهم من ينزع فى مثل منازعهم فى أحوال دنياه وآخرته .

فلما كان ذلك هو كلُّ التاريخ عندهم ، وكانت هذه سبيله ، لم يكن بدٌّ لهم إلا أن يعتمدوا فى جمعه وتأليفه سبيل الرّواية ، فيذكروا السّنة ثم ما كان فيها من الحوادث[1] — أو أهمها على الأرجح — ينقلون ذلك

(١) قرأت فى الثقافة عدد (٥٠) وما قبله ما كتب الأستاذ العبادى فى تحقيق صفة (السفّاح) التى ألصقتها الروايات المختلطة (بأبى العباس الإمام) أمير المؤمنين ، وهى من أجود ما رأيت فى التحرى والتنسم والتنقيب ، وهى مثال جيد لبعض ما نريد هنا .

(١) ولا شك أن هذا هو العمل الابتدائى فى التاريخ وكان لابد منه ، وهو أشبه (بالصحافة) فى القرون الأولى ، ولذلك وقعت فيه عيوب كثيرة من عيوب الصحف الأخبارية

عمّن شهد ، وليس كل من شهد يتكلم ، ولا كل من يتكلم يستقصى ما شهد أو يحفظ كل ما رأى وما سمع ، وإذا تكلم الشاهد فإنما كل همّه التبليغ بما شهد دون التفصيل والتصوير ، أو تمييز العلل والأسباب التى أوجبت ما كان ولم كان ، وكيف بدأ ، وأين انتهى أثره . فإن ذلك — إن كان — لا ينصرف إليه أحدٌ وهو يتحدّث ، وإنما يكون مطلباً لمن يكتب أو يؤلف .

ولما كان أهم ما تنبعث إليه همم الأوائل من علماء التاريخ سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسير أصحابه وخلفائه فى ضبط الرعيّة وإقامة دين الله فى عبادته وسياسته ، طلبوه على أنه أسلوب يفضى إلى الفقه فى أسرار الدين وشرائعه ، ومحجة إلى أصل العمل فى الاسلام لسياسة الدولة وتدبيرها ؛ وكذلك درج التاريخ على مدرجة (الحديث النبوى) فى الاسناد إلى قائله ؛ هذا وإن كان المؤرخون لم يعنوا بما عنى به أصحاب علم الحديث من استبراء الأخبار وأسانيدها استبراءً يحوط أصل الخبر بالثقة واليقين ، ويقف به على مطمئن القول . فقد كان هم المؤرخين أن يحشدوا من الأخبار استكثاراً على غير تثبت ، فلذلك عرفوا فى تاريخ العربية (بالأخباريين) ، وكان من توصيمهم أنه يغلب عليهم الاكثار والتخليط واحتطاب ما يستهجن فى الرأى ، ويُسترك فى النظر . ولولا أن أئمة المحدّثين استنقذوا سنة رسول الله بما يشبه المعجزة ، من بيداء الشك والحيرة ، لكان أشد البلاء على تاريخ الاسلام الأول ما اضطرب من روايات الأخباريين ؛ فان اشتراك علماء الحديث وعلماء التاريخ فى جمع سيرة رسول الله وسير أصحابه وذكر ما كان من أحوالهم وسياساتهم وغزواتهم وفتوحهم — كلٌّ لما انتحب له — هو الذى أبقى بين أيدينا معياراً ينتقد به الزيف على الصحيح من وجوه مختلفة يهتدى إليها البصير بنقد الأحاديث والأخبار .

بل إن علم الحديث هو عندى أعظم الأصول التاريخية بغير شك ، فان أصحابه كانوا يعتمدون به البيان فى فقه الدين وشرائع أهله ، وما يجرى عليه عمل الفرد والجماعة والدولة ، فهو بذلك أغزرُ مادة للتاريخ الاجتماعى فى نشأة الإسلام وبدئه . والأخبار المفرّقة التى احتشدها المؤرخون لا يوصل أولها بآخرها إلا بصلات من حقائق التاريخ الاجتماعى للأمة الاسلامية ، وإلا بقيت كما هى ، أبابيد لا يربطها شيء من حيل المؤرخين[1] التى ظنوا بها أن تكون استقلالا للتاريخ ، حتى يصبح علماً من العلوم .

وهذا التاريخ الأول الذى وقع إلينا تفاريق أخبار شتى بين الصحة والبطلان ، والقصد والسرف ، والعلو والنزول ، قد كان خيراً للتاريخ بوجه ، وإن كان قد أدركته علل من وجوه أخرى . فهو أخبار مجموعة مؤلفة مسندة لم يدخلها رأى كاتب ولا تصرف مؤول ، ولا حيلة محيل ؛ وبذلك بقى فى الكتب الأصول على حالة واحدة لم تتغير ، وسيبقى كذلك أبداً . ولو أن المؤرخين فعلوا غير ذلك لانتهى إلينا تاريخ عقول كتبته على اختلاف وتباين بين صحة وفساد ، ولم يكن هكذا أخباراً باقية يؤول إليها المختلفون فى تحقيق الخلاف والإبانة عن مذهب الرأى بالحجة منه والبرهان . وأما أشد ما يلحقه من العلة لاعتماده على الاسناد والرواية والإخبار ، فهو خفاء الأسباب التى تلحق الأحداث فتكون بها ، أو تدركها فتتحول بها عن نتيجة القياس التاريخى . فإن الشاهد — وهو المسند إليه الأول أو الراوى الأول — قل أن يلقى إلى سامعه أو مستخبره إلا بالنبذ اليسير من الخبر عما كان ، ولا تكاد تجده يدفع إليه بالرأى فى تأويل المشكل من الأخبار ، فان كان فى خبره شيء يدل على أصل رأيه ، فانما يأتى فى سياق القول من غير بيان أو إشارة ؛ وليس يستطاع أن يعرف ما فى الخبر من رأى المخبر به أو هواه أو تدليسه أو غلوه أو

(١) من أعظم حيل المؤرخين تأليفهم الأخبار المسندة فى سياق بعد تنى الاسناد ، وكذلك فعلوا حتى انتهى إلى ابن خلدون على جلالته ، فكانت هذه كل حيلته وعجز .

سهوه وغلطه ، إلا أن يجتمع للخبر صنو من مخبر آخر يخالفه أو يشاكله أو يباينه فى سوق الخبر كل المباينة ، فعند ذلك يستطيع القارئ أن يفرق ويميز ، ويضع الأسباب فى أعناق نتائجها على تحقيق وثقة .

فمن أهم ما يجب على المؤرخ فى عصرنا هذا ، استيعاب الأخبار عن أكبر عدد من الرواة ، ليتسنى له أن يقارن بين الأخبار المختلفة ، ويستخرج الأسباب والعلل فى خبر خبر ، ويجمع إلى ذلك ما يتشتت فى هذه الأخبار من الدلالات على التاريخ الاجتماعى الاسلامى فى ذلك العصر ، وهو أهم مادة التاريخ لمن يؤرخ على السرد ، لا على الرواية والاسناد ؛ ومع ذلك فان طبيعة هذا العلم فى التاريخ العربى تقتضى أن لا يقتصر فى طلب ذلك على كتب التاريخ ، فان العرب لم يستنبهوا إلى هذا الباب الكبير فى تاريخهم ، ولم يجمعوا فيه إلا نبذاً متفرقاً قليل الغناء . وقد تفرق وبقى موزعاً بين نصوص اللغة وعلم الحديث ، وكتب تفسير القرآن ، وفقه الشريعة ، وكذلك بقى فى أصول الأدب من نثر وشعر كثير فى دواوين الشعر وأخبار الشعراء ، ثم فيما تفرع عن ذلك من بقية أبواب العلوم والفنون ، ككتب الاختلاف والكلام ، والملل والنحل ، وما يرد إليه ذلك من أصول النشأة والأولية .

فعملُ المؤرّخ كما ترى من المشقة والكدّ والتعب والمشاركة فى أنواع من العلوم بالمكان الذى لا يُقدِم عليه إلاّ من اتخذ لهذا الأمر أداته وأعدّ له عُدّته ، وعمل فى إدراكه بالمصابرة والمرابطة وإطالة التدبير . ومع ذلك فإن أكثر من يتعرض لكتابة التاريخ على السرد ، يقنع بقراءة بعض ما كتب الأوائلُ من تاريخهم على الرواية ، ثم يلفقُ بين الروايات بما يدبُّ إلى رأيه من أسباب يحملُ التاريخ على قبولها حتى يتوجه له أن يكتب هذا التاريخ للفرق بما يُشبه أن يكون سرداً واحداً كأنه ثوبٌ حوكٌ لا يختلف بعضُه على بعض . ولكنه ينسى أن كل مفرق يمكنُ أن يُجمع على شكل من الأشكال حتى ينتظم سرده ويتصل ... ولكنه بعد لا يستطيع أن يدّعى أن هذا السرد كان هو السردَ لا غيره . فإذا كان قد دفع الأصول التى اتخذها دفعاً عنيفاً فلم يخش أن تتقطع صلاتٌ كانت بينها وطمستها علل الرواية وما تقتضيه من التفرق والتباعد والتنازع وما إلى ذلك — مما لا يسع بيانه هنا — وإذا كان يختار من الروايات رواية واحدة لعلها تكون أضعف أخواتها أصلاً ، وأخفاهنّ شخصاً ، وأقلهن مادة ، وأسكتهن عن بيان الوجه والعلة والسبب ؛ وإذا كان لم يقف على الأسباب التى حملت الراوى الأوّل على السكوت عن بعض القول ، أو ألجأت صاحب الخبر نفسه إلى الموقف الذى وقفه فى خبره . . . إذاً فقد أحال التاريخ عن أصله ، وأزال أحداثه عن أماكنها ، وأدار وجهه إلى غير ما توجّه له ؛ وأسقط من بيان سياقه ما أسقطت الرواية من لفظ قد أبقته مضمراً غير منطوق .

وإذا لم يكن مثل هذا فساداً فى كتابة التاريخ ، فهو — لا شكّ — عجز عن معرفة أصول التاريخ والنفاذ إلى ما يتلاءم عليه وما لا يتلاءم . وإذاً فلا نلبث إلاّ قليلاً حتى نرى التاريخ الاسلامىّ الأوّل تاريخاً مضحكاً لا يكادُ يخلص قارئه إلا إلى استجهال أو تنقص أو سخرية أو حيرة .

ومردُّ هذا البلاء فى التاريخ الاسلامىّ — وفيما كتبه المحدثون خاصة — إلى أصلين قائمين لا يزال أحدهما مُمداً للآخر غاذياً له : أولهما أن التاريخ السرد أسلوب جديد بيّن الجدة على التاريخ العربى ، فلم تضبط له أصولٌ من طبيعة نشأته ومدرجه ومنبته الذى استوى فيه ، ولم تمحص له أصول أخرى كان يجب أن تُنتخل وتُنتقى وتستصفى قبل البدء فى الكتابة ؛ وعسى أن يكون ذلك قريباً . وأما الآخر فهو ما انقذف عليه مما كتب الأعاجم المحدثون فى تاريخ الدول الاسلامية ، وغير ذلك من آداب

(البقية على الصفحة التالية)

فى سبيل جيل جديد ...

بيئات تُشـــقى

من مآسى الحياة أن يعيش الانسان فى بيئة لا يفهم أهلها ولا يفهمونه ، ثم هم يرغمونه ، أو يحاولون إرغامه ، على أن يسير وفق رغبتهم ، متجاهلين ما لديه من طبائع وعادات خاصة .

وهذه بضع حالات من تقرير عالم نفسى اسمه دافيد سيبُرى D.Seabury رأيت تلخيصها لشدة شبهها بكثير من الحالات فى مصر .

١ — هذا صبى سر شقائه أن المسؤلين عنه يتصورون دائماً صورة معينة للطفل الكامل ، وهم يريدون منه أن يحقق لهم بكل وسيلة هذه الصورة المرسومة ، والصبى شاذ لو استغل شذوذه لنفعه ونفع الانسانية ، هو لا يهتم بما يهتم به الصبية ، ولا يحب الاختلاط بهم ، ويجد لعبهم تافهاً بارداً ، هو يضايق مدرس التاريخ بكثرة أسئلته البعيدة عن الدرس والمقرر ، لأنه يريد أن يعرف ماذا كان يحدث فى العصور التى ليست فى مقرره ، ولأنه مشغوف بمعرفة ما كان يعمله قوم غير الذين يدرسهم ، وهو كثيراً ما يناقش فى موضوع الحرب ويبدى ميولا سلمية ، فى حين أن أبويه وطنيان متحمسان . ومدرس الأدب يشكو منه ، لأنه قرأ الكتب المقررة للعام كله فى شهر واحد ، ويأبى إلا أن يضيّع وقت الطلاب بالأسئلة فيما قرأ وفيما لم يصلوا هم إليه بعدُ . والظاهر أنه قد قرأ مقالاً يفاضل فيه كاتبه بين أديبين ، والظاهر أن المقال ترك فيه أثراً قوياً ، فهو يريد أن يناقشه باستمرار ، وعلى حساب الدرس والطلاب . هذا الصبى لا شك أنه شاذ ، ولا شك أنه عدو المقاييس والخطط المرسومة . هو ذو مزاج فردى لا تؤثر فيه الأشياء التى تتعلق بالجماعة ؛ ولكن والديه يعبدان التقاليد ويريدان من ابنهما أن يكون كسائر الأطفال الطبيعيين ؛ بل إن القلق ليساورهما شديداً إذا ما أشعرهم الصبى بأى اختلاف جوهرى بينه وبين سائر الأطفال ، وهما يحاولان جهدهما أن يمحُوا شذوذه ، ولو أشعره ذلك بأنه مضطهد دائماً .

هذا الطفل حينما يكبر سيكره المجتمع ، بدل أن يحاول

العرب وعلومهم الخاصّة بهم لم يشركهم فيها أحد ؛ فإن ما كتبوا من شىء فى ذلك لا يقوم أكثره لشىء من النقد ، لأنه مبنى على أصول فاسدة مختلة ، لما فيها من نقص الاستقصاء الشامل لعلوم وفنون لم يتعلقوا إلا بالقليل منها . هذا على أنهم ربما أتوا فى الاستقصاء المحدود بالآيات على الصبر واليقظة والدقة ، ولكنهم يأتون فى فهمه أيضاً بالآيات على بعدهم عن إدراك الحقائق التى لا تنقض فى تاريخ هذه الأمة وآدابها . ولما كان هؤلاء هم القدوة فى هذا العصر ، وانتفشت معانيهم بأوهامها فى جماعة من الكتاب لم يأخذوا علمهم على البيّنة والثقة والتحرير ، وباد أهل هذا العلم إلا قليلا ، تتابع الناس على الخطأ فى تصوير التاريخ الإسلامى ، وإن كان بعضهم قد أجاد المذهب وأساء الغاية . فما للمؤرّخ إذاً بُدٌّ من التمحيص قبل البدء ، وأن لا يعتمد من أقوال هذه الأعاجم فى فهم التاريخ الإسلامىّ شيئاً إلا أن تقوم البينة على صواب المذهب فيه . وكذلك يمكننا أن نُنبِتَ هذا العلم فى أرضه التى هى له أغذى وأعدل ؟

محمود محمد شاكر